خطاب حسن نصر الله وإدارته لحرب تموز

بقلم رونين كوهين؛ جامعة حيفا

موضوع البحث

هذا البحث مهتم بخطاب قائد خلال حرب، وذلك كوسيلة يمكن إستخدامها لفهم أفعاله وإتخاذ قرارات حول كيفية مواجهته. في هذا البحث سيتم درس الخطاب المستخدم من قبل قائد منظمة حزب الله خلال حرب لبنان الثانية. وستستخدم في هذه الورقة حرب لبنان الثانية كحالة دراسية لفهم التطور الحاصل في فهم نصر الله لتوازن القوى في الحرب اللبنانية (12 تموز – 14 آب، 2006)، كما سمعنا وشاهدنا في ظهوره الإعلامي. إن إضاءة كهذه قد تساعد أيضاً في عمليات صنع القرار، إدارة السياسة، وتفعيل النظام الأمني الإسرائيلي في المستقبل.

إن عملية صنع القرار خلال أوضاع الأزمة والحرب غالباً ما تكون صعبة وتحمل تحديات. هناك حاجة لتصحيح القرارات في الظروف الغامضة، غالباً خلال مدة قصيرة جداً من الزمن وتحت الضغط المفروض على صانع القرار بسبب عوامل متعددة. هذه الحاجة تحوِّل العملية الى واحدة معقدة بشكل واسع، والتي تعتبر حساسة وسريعة التأثر أيضاً بمؤثرات عديدة.

مطلوب من صناع القرار من كبار الصفين السياسي والأمني أن يكونوا مطلعين على المعلومات التي تبني صورة الواقع الذي يواجهونه. والمطلوب منهم أيضاً أن يكونوا جزءاً من عملية التقييم وتفسير هذا الواقع، وبشكل رئيس، فهم التعقيدات المستخلصة.

إن إدراك وفهم واتحقق من نظام إعتبارات / حسابات العدو ورغباته وقيوده، هو واحد من أهم العوامل المأخوذة في الحساب خلال عملية صنع القرار وأكثرها حسماً. إن الإفتقار لفهم نظام الإعتبارات / الحسابات يمكن ردمه من خلال تحليل خطاب معبَّر عنه أثناء ظهورات علنية لقيادة معارضة والملاحظات المأخوذة خلال زمن السلم، وزمن الحرب بتأكيد أكبر.
بالإمكان مقارنة تحليل لخطاب بإستخلاص الجوهر من الكل. فعندما تظهر قيادة مناوئة للعلن، فإنها مدركة للتأثير المحتمل على الجانب الآخر، وستتصرف للتعبير عن كلماتها وفقاً لذلك. لذا، إن تحدي البحث هذا مركز على محاولة إنتقاء الجوهر من الكل (غايات العدو الأساسية، محاولة العدو إبهام غاياته وتضليل خصمه).

غالباً ما يكون قادة الخصم تحت ضغط هجوم عسكري ضخم. هم مجبرون على الدفاع عن أنفسهم والإختباء. فالطريقة الوحيدة كي يكون لهم تأثير على مشاهديهم ومستمعيهم هو من خلال بث خطاباتهم على محطات الراديو أو الصور من خلال القنوات التلفزيونية. هذا حدث مع هتلر في ألمانيا عند نهاية الحرب العالمية الثانية. وهو حالياً الأسلوب الذي تتبعه قيادة منظمة القاعدة الإرهابية. وهو في الواقع الأسلوب الذي تصرف به حسن نصر الله، قائد منظمة حزب الله، خلال مسار حرب لبنان الثانية.

إن ظهور نصر الله في الإعلام خلال الحرب خدمه كأداة رئيسة، وربما كأداة وحيدة، لنقل رسائله الى جماهيره المستهدفين المختلفين ولمحاولة ترويج أهدافه.

لقد قاد حسن نصر الله، قائد منظمة حزب الله، الحرب الطويلة المستمرة ضد إسرائيل منذ تأسيس المنظمة. ففي عامي 1982 – 1983 إحتل عدداً من المواقع المختلفة في منظمة حزب الله الى حين تعيينه أميناً عاماً في العام 1992 (أرفع منصب في حزب الله)، والذي لا يزال يحافظ عليه حتى هذا اليوم.

كان نصر الله مكشوفاً للقيادة والشعب الإسرائيليين أثناء وجود جيش االدفاع الإسرائيلي في "المنطقة الأمنية" في جنوب لبنان وقتاله ضد منظمة حزب الله. هذا الإنكشاف توسع وتعمق خلال الفترة (التسعينات) التي إستهلت فيها إسرائيل عمليات واسعة ضد حزب الله في لبنان (عملية "دين فيهيشبون" في تموز 1993 و عملية "عناقيد الغضب" في نيسان 1996). ووصل الظهور العلني الى ذروته بعد إنسحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان (أيار 2000) في الخطاب السيئ الذكر حيث قارن نصر الله قوة المجتمع الإسرائيلي بـ " بيت العنكبوت".

إن معيار نجاح نصر الله بقيادة الحملة ضد الوجود الإسرائيلي في لبنان لم يكن محدداً بالنزاع العنيف المنفذ من قبل حزب الله ضد إسرائيل فقط، وإنما حددته قدرات نصرالله الخطابية وتأثيرها على الرأي العام الإسرائيلي، وعلى قادة إسرائيل والعالمين العربي والإسلامي. إذ يبدو بأنه منذ الظهور العلني والخطابات الإعلامية لجمال عبد الناصر، زعيم مصر لحوالي 4 عقود مضت، لم يكن هناك قائد في العالم العربي قادر على التأثير بهذه الضراوة على الشعب والقيادة الإسرائيلية الى حين مجيئ نصر الله.

خلال حرب لبنان الثانية، تم بث الظهور الإعلامي لنصر الله على إمتداد إسرائيل، وتم تحليل خطبه من قبل مفسرين وخبراء بمحتوى الخطاب، ونال رداً تفاعلياً قوياً من قبل القيادة الإسرائيلية وأفراد رفيعين في المؤسسة الأمنية العسكرية (بشكل رئيس بسبب تركيز أجزاء من خطبه على التهديدات ضد إسرائيل وذكر الجنود الإسرائيليين المختطفين).

ظهر نصر الله في البث الإعلامي (تلفزيون المنار وإذاعة النور العائدتان لمنظمة حزب الله في لبنان) 10 مرات خلال الحرب (12 تموز – 14 آب). ولم يظهر سوى مرة واحدة فقط علناً (عشية بدء الحرب) في مؤتمر صحفي في بيروت عندما أعلن إحتجازه الجنديين الإسرائيليين المختطفيين (12 تموز). أما خلال الأوقات الأخرى من الحرب فكانت خطاباته تبث بوسائل التسجيل المصورة مقدماً في مكان إختبائه.

أطروحة البحث

في ورقة البحث هذه سيتم عرض السؤال التالي:

الى أي مدى بإمكان الإستخدام الفعال لتحليل خطاب نصر الله، المعبر عنه في ظهوره الإعلامي، أن يساهم في فهم سياسته، وأن يؤثر، إستنتاجاً من ذلك، على عملية صنع القرار وعلى إدارة الحياة السياسية الإسرائيلية المختلفة خلال الحرب؟

لتحليل أقصى عدد من المكونات والعوامل التي أثرت على فهم نصر الله وإفساح المجال أمام مجهود أمثل في الإجابة على سؤال البحث، تم تحديد عدداً من الأهداف:

الأول: تقدير "إعتياد" وقدرة نصر الله على إستيعاب سياسة الحكومة الإسرائيلية ومفهوم تحرك جيش الدفاع الإسرائيلي. (كما يمكن أن يُستنتج من خطاباته ومقابلاته).

الثاني: محاولة رسم تخطيطي لأسلوب نصر الله في إستيعاب السياسة الداخلية اللبنانية والسياسة العربية المتبادلة والسياسة الدولية بنجاح بما يتعلق بالحرب في لبنان (كما يمكن أن يُستنتج من خطبه ومقابلاته).

الثالث: تحديد مفهوم حزب الله للتحرك العسكري (كما يمكن أن يُستنتج من خطبه ومقابلاته).

في ضوء الأهداف المذكورة آنفاً: سيركز البحث على محاولة تحليل الأسباب التي أدت الى تغيير في رؤى نصر الله من بداية الحرب حتى نهايتها، والتعقيدات فيما يتعلق بهذه أو تلك على إدارة صناع القرار الإسرائيليين للحرب.
أما الزعم الذي سيحاول البحث إثباته فهو التالي:

تسببت رؤى نصر الله خلال الـ 34 يوماً من الحرب، المستمدة من تطورات حصلت في الجوانب العملاتية، السياسية، والإجتماعية لكلا الفريقين، بتغيير في كلام ومحتوى خطاباته.
إن إستخداماً حكيماً وفورياً لهذه الرؤى خلال الحرب كان ليؤثر على عملية صنع القرار الإسرائيلي، الناشئ من جوانب سياسية وعسكرية إسرائيلية مختلفة.

خلاصة الخلفية النظرية

في الصفحات الإفتتاحية لكتابه " الخطابة"، يزعم شاعي فروجيل (Shai Frogel) بأن بالإمكان إستخدام تصريح نيتشه حول " موت الله" كبوابة مناسبة لتفكير القرن العشرين بما أن "الموت" هو "موت الحقيقة" و " العدالة النهائية". وقد عبّر فروجيل عن ذلك بالطريقة التالية "(...) إن فكر القرن العشرين متسم إذن ليس برفض إمكانية الحقيقة الكلية فقط وإنما بتقويض مصادر تقليدية عريقة للحقائق والقيم. ففي سياق من هذا النوع، فإن الطبيعي فقط هو أن يتم تجدد الإهتمام بالخطاب (حيث يرى كل من داعميه ومنكريه مجاله الحي في مناقشات تفتقر لمعيار إخضاع واضح وتام) وليعاد درس طابعه من قبل باحثين وفلاسفة(...)(.R.C - ملاحظات بالخط العريض).

لذا، والى حد ملحوظ، نال الخوف القديم من إستخدام الخطاب كفن أسلوب، الأمر الذي قد يضر بإمكانية إحقاق " الحقيقة"،معنىً مختلف بالكامل بعد 2500 عاماً.

لقد أثر إنهيار " الحقيقة النهائية" بشكل مباشر أيضاً على إستخدام الخطاب. فالخطيب هو في الواقع ملزم بـ " رواية" يختار تقديمها.

في حقبة ما بعد الحداثة حيث إستُبدلت الحقائق والمفاهيم القديمة لصالح " رواية" شخصية، إجتماعية، ووطنية يتمكن المتحدث من إستخدامها كفن نقاش مترافق مع كل الطرق والتقنيات التي تطورت على إمتداد التاريخ. مع ذلك، فإن المتحدث لا يكافح لأجل "الحقيقة" وإنما يكافح لأجل تلك التي تخدم وتدعم " روايته" المختارة.

في الحقبة الجديدة، ليس المناقشات فقط التي "تفتقر لمعيار الإخضاع الواضح والتام"، بحسب ما يحاجج فروجيل، بل أن الصفة المميزة للحرب والحملات، بشكل ملحوظ بين كيانات شبه حكومية و منظمات إرهابية، أصبحت صعبة التحديد. فمصطلح " النصر التام" ظل خاصية مميزة لحروب الماضي التقليدية حيث حاربت الجيوش النظامية بعضها البعض لحين وصولها لوضع النصر الواضح الذي لا لبس فيه أو الهزيمة.

ما هو النصر؟ من الذي يحدده؟ في حقبة الصراعات اللا متماثلة بإمكان أي فريق إدعاء النصر وتحقيق أهداف الحرب. هذه الحقبة من الصراعات تفسح المجال أمام محاولة الربط السببي بين إستخدام الخطاب في القرن العشرين بمصطلح "الحقيقة"، ما يخدم "رواية" نصر قائد منظمة إرهابية.

إن مصطلح الخطابة في معناه القاموسي الحرفي يعني فن إلقاء الكلام، بما أنه، بالأصل، مستمد من فن المتكلم بالواقع. فعلى إمتداد التاريخ، منذ عصر اليونان القديمة وحتى القرن العشرين، كان الخطاب والخطيبون مرتبطين بعوالم مختلفة عديدة من المحتويات التي أُضيفت الى الخطابة طبقة بعد طبقة. إذ أغنى فلاسفة ومفكرون مختلفون الفن والأدب، بالتعامل مع الخطاب، ما يعكس الجوانب المنوعة العديدة التي تمت إضافتها إليه بمرور الزمن. وبذلك، بالإمكان رؤية تطور الخطاب من نشوئه خلال فترة اليونان القديمة، مروراً بروما، العصور الوسطى، عصر النهضة الأوروبية، وصولاً الى العصر الجديد والقرن العشرين.

وخلال كل فترة من الفترات، كان الفلاسفة والمفكرون مؤثرين على هذا التطور من خلال المناقشات، النزاعات وتبادل الآراء. ففي الحقبة القديمة، على سبيل المثال، إرتفع السؤال ما إذا كان مناسباً إستخدام الخطاب لتقديم "الحقيقة" أو "العدالة" وكيفية ذلك؟
أما الخطاب، الذي هدفه الوحيد مسرة الناس، فقد حدده أفلاطون (347-428 قبل الميلاد) بقوله:

إن " الخطاب السيئ" الذي هدفه إصلاح نفوس الناس تم تعريفه على أنه " خطاب حسن". حتى أن أفلاطون ذكر عدداً من الظروف المطلوبة للـ "الخطاب الحسن" على سبيل المثال: هجر مصطلحات غامضة ومثيرة للجدل، تقديم مناقشات منظمة عملياً، القيام بمناقشات مدعومة بمعرفة واسعة وضخمة عن الموضوع المتداول، إلخ. أما أرسطوطاليس (322-384 قبل الميلاد)، تلميذ أفلاطون وخليفته، فقد تعامل، الى حد كبير، مع موضوع المقارنة بين الخطابة والمناظرات. فقد زعم وجود صفة مشتركة بين الإثنين لأن كلاهما موضوعان غير علميان. كلاهما مطلوب عند الحاجة لإثبات الزعم والزعم المضاد. كلاهما فن (تقني) وليس حقل معرفة. لذا، فقد كافح أرسطو لتقديم الخطابة كفن جدال (مقدماً مزاعم) وليس كفن أسلوب. وبهذه الطريقة، كان من الأسهل التقليل من شأن المعاني السلبية المرافقة التي لازمت الخطاب حتى في ذلك الحين.

أما في روما، فقد كان يُنظر للخطاب على أنه فن أساسي لرجل الدولة الجيد. فدرسهم للرابط بين الخطاب والحياة السياسية ساهم بتعزيز نقاش سياسي مثقف.

ويُنسب للعصور الوسطى على أنها لم تقدم مساهمة كبيرة لتقليد الخطابة. في كل الأحوال، يجدر هنا ذكر تطور منهج التعليم من خلال الجدل (جزء حيوي من دراسات اللاهوت والقانون)، إضافة الى تطور فن كتابة الرسالة ودراسات فن الأسلوب في الجامعات.

أما في العصر الحديث، فقد بحث الفلاسفة عن الفكر من دون اللغة، أو بحثوا بشكل بديل عن لغة عالمية. في هذا السياق، كانت مساهمة فلاسفة كهؤلاء مثل كامبل، بلير، وواتلي هامة. إذ حدد جورج كامبل القدرة على الكلام على أنها " فن أو موهبة لمطابقة الكلمات المنطوقة مع هدفها."

ميَّز كامبل بين معاني الخطاب – الجانب المنطقي، والشكل الذي تتم فيه صياغة الأفكار من خلال الخطاب والجانب القواعدي. وبذلك، تكون الخطابة منطق أيضاً. بالواقع، هذا مفهوم واسع للخطاب كإطار عمل عام يدمج أشكالاً متنوعة من الفكر والكلام، بما في ذلك الجانب المنطقي. لذا فإنه فن ذو شأن ومؤثر. أما بلير(1718 – 1800) فقد درس الخطاب من خلال مصطلح " الفكر والإدراك البشري" . لقد صوَّب على فكر الأكثرية (وليس على قدرة الفرد) المحرومون من النقاش الحواري المتبادل، إما بالحوار أو كما ظهر في النصوص المكتوبة. فالخطاب يحتفظ بدوره الفريد كفن إقناع بهدف تشجيع العمل أو منعه. وقد ميَّز واتلي (1783- 1846) بين المنطق والخطاب. فعلى عكس الزعم المنطقي، فإن النتيجة مع الزعم الخطابي معروف مقدماً. فالمجهود الخطابي موجه نحو دعم الزعم الذي يهتم به المتحدث ولذا فهو متحيِّز. ويزعم واتلي بأن هذا فن شديد الأهمية لتبرير موقفك مقابل نظيرك (بصفته مناف للمنطق الذي هو فن حاسم لصالح الكشف عن الحقيقة).

إن الباحث الذي أثر بشكل هام وبارز على الخطاب في القرن العشرين هو حاييم بيرلمان (1912 – 1984). فتعريفه للخطاب " الجديد" (La nouvelle rhetoric) إرتبط بعلاقة سببية مع التقليد الكلاسيكي للخطاب (خطاب أرسطوطاليس بشكل رئيس). فالخطاب الجديد، بحسب ما زعم، هو نظرية تقديم مزاعم جدلية وخطابية، كأمر مساو للمنطق التشكلي، الذي هو نظرية البرهان المنطقي. وبحسب بيرلمان، فإن الفرق بين تقديم زعم وتقديم برهان هو أن الزعم موجه الى المتلقي، في حين أن البرهان يخضع لقوانين واضحة ومعروفة. لقد إعتبر بيرلمان نفسه كواحد عائد الى " لغة" اليونان بمفهومها الأصلي – الربط بين الكلام والفكر.

أين يكمن الخطاب الشيعي الإسلامي بما يتعلق بتطوره التاريخي في العالم العربي؟ بما يتعلق بهذه المسألة، لم تتوفر لدينا مادة كافية، مع ذلك، فإن الأدب المهتم بنمو القادة الشيعة الدينيين يمكّن من الحصول على ومضة ما في هذا العالم الخفي.

على سبيل المثال، من الممكن ملاحظة قائمة مواضيع إلزامية حتمية تتطلب الدراسة والمعرفة المسبقة، الأمر الذي يعتبر شرطاً أولياً للـ " المُلاّ" (عنوان الإحترام لشخص ديني متعلم) ليصبح "مجتهداً"، كما عبَّر عن ذلك الخميني (قائد الثورة الإسلامية في إيران). ومن بين هذه المواضيع هناك : تعاليم علم المنطق بالإضافة الى بذل أقصى جهد الشخص وتجنيد كل قوته لإستخلاص وصياغة الإستنتاجات من القانون الإسلامي.

إن أسلوب التعليم في " المدرسة" (مؤسسات التعليم الديني الإسلامي الشائعة) يمكنه أن يقدم إضاءة على طريقة تعليم الخميني المبنية على أساس المناقشات المطروحة وتقديم نواقضها، التي يقوم عندها المعلم بدعوة تلاميذه لمناقشتها معه.

إن طبيعة هذه الدراسات توفر للتلميذ محفز جدلي وخطابي وعودة واسعة الى تلك المهارات.

ولخدمة إحتياجاته، إستخدم الخميني مصطلحات مأخوذة حتى من المصطلحات الفنية العسكرية التي تعلمها عندما كان يستمع الى البث الإذاعي من إلمانيا وإنكلترا خلال الحرب العالمية الثانية. علاوة على ذلك، بحسب ما يدعي البعض، كان يمارس المديح والإطراء تجاه هتلر. بالنتيجة، فإن تقديري هو أنه في هذه العملية قد يكون الخميني صادق، في خطاباته الخاصة، على الأساليب المتبعة من قبل هتلر.

هناك رجل إسمه فضل الله هو القائد الروحي الديني وأحد الآباء المؤسسين لمنظمة حزب الله ورجل ذو تأثير ونفوذ كبيرين في أوساط المجتمع الشيعي في لبنان. وقد قيل التالي حول أسلوب خطابه، "(...) إن التحكم بنماذج الخطاب الرسمي أفرده كشخص ذو خبرة طويلة آتٍ من النجف وميزه عن الآخرين، وأعطاه أداة القوة الإجتماعية (...) كما أعطاه السيطرة على هذه النماذج المقدسة، المغذاة بحذر وإهتمام بالمدرسة الدينية والمسجد، المشهود لها لصالح سلطة المتكلم على مستمعيه. " وقد وُصفت موهبته كمتحدث بالأسلوب التالي: " (...) إستخدم فضل الله لغة واضحة فقط عندما كانت الشفافية تخدم قضيته. وغالباً لم تخدم قضيته، وعندها كان الغموض والإبهام يربك عقول الصحافيين."

بإختصار، إن الخلفية النظرية في أساس البحث واسعة، متنوعة ومأخوذة من فروع تعليمية وميادين معارف مختلفة (غربية وإسلامية) تحيط بفترات تاريخية طويلة.
هذه الورقة ستحلل وتناقش موضوع الخطاب، المستخدم من قبل نصر الله خلال حرب لبنان الثانية. هذا الخطاب يؤشر الى رجل إستمد تعليمه ومعرفته من عدد من المصادر: من التعليم الديني الروحي وفقاً لأفضل التقاليد الشيعية الإسلامية، من القادة السياسيين، الدينيين الروحيين الذين قادوا التغييرات الهامة والبارزة في إيران ولبنان ومن دراساته للغرب عموماً وإسرائيل خصوصاً.

كل ما ذكر آنفاً موضوع مقابل خلفية فهم نصر الله وإستخدامه للخطاب " كمجال حي في المناقشات المفتقرة لمعيار التسخير الواضح والتام" (بحسب فروجيل).

هيكلية ورقة البحث

إن الورقة مؤلفة من خمسة فصول. تبدأ المقدمة والمراجعة بتوفير خلفية مختصرة وتقديم موضوع وفكرة البحث الرئيسة. علاوة على ذلك، يراجع هذان القسمان الإفتتاحيان الأدب ذي الصلة بموضوع البحث بالإضافة الى التنفيذ المتماسك لهذا الأدب. وهما يسهبان أيضاً بشرح هيكلية وأسلوب البحث.

أما الفصول الثلاثة التالية، التي تقسِّم مدة الحرب الى 3 فترات زمنية، فتشكل صلب التحليل البحثي. ويُقدم في نهاية كل فصل النقاش، التعقيدات والإستنتاجات. ويركز الفصل الأخير على موجز للتعقيدات والإستنتاجات.

هذه الفصول الثلاثة تدمج بين وصف تحولات الأحداث خلال الحرب(بناء، وبشكل أساسي، على معلومات مقدمة موجودة في تقرير لجنة فينوغراد) وتحليل للخطاب المستخدم في ظهور نصر الله الإعلامي، في الوقت الذي تركز فيه على قضايا مركزية أثرت بشكل واضح على عملية صنع القرار لإسرائيل.

عند تحليل الخطاب في ظهور نصر الله الإعلامي، تم إستخدام درس الأبعاد المختلفة للخطاب (البصري، السمعي، النفسي)، طرق الإستخدام، تحليل الأسلوب والرسائل المنقولة ووسائل الإقناع، إلخ. كل هذا تم من دون التركيز على فترة واحدة محدد من الزمن في التطور التاريخي للخطاب.

إضافة لذلك، تم درس ظهور نصر الله مقابل تحليل الخطاب الذي يسم القادة خلال أوقات الضغط والأزمة.
الفصل الأول يتصل بفترة العشرة أيام، بدءاً من صباح الأربعاء 12 تموز (حادثة الخطف) وإنتهاءً بيوم الجمعة 21 تموز. وتم تقسيم هذه الفترة الى مرحلتين:

المرحلة الأولى – دامت حوالي 48 ساعة، بدءاً من الأربعاء، 12 تموز الساعة التاسعة صباحاً (خطف الجنديين الإسرائيليين، ريغيف و غولدواسر، على طول الحدود البنانية – الإسرائيلية من قبل منظمة حزب الله) وإنتهاءً بصباح الجمعة 14 تموز.
خلال هذه المرحلة، ظهرنصر الله بعرض أول بعد ظهر يوم الإختطاف وإستضاف مؤتمراً صحفياً في بيروت.
أما المرحلة الثانية فدامت حوالي أسبوع، بدءاً من صباح الجمعة 14 تموز ودامت حتى 21 تموز. خلال هذه الفترة، ظهر نصر الله مرتين: في 14 و 16 تموز.

في هذا الفصل تم تحليل خطب عرضه الثلاث (خطاب إنتهى بمؤتمر صحفي وخطابين إضافيين). وكان هناك محاولة للإشارة الى مفاهيم ومواقف نصر الله خلال المراحل الأولى للحرب. علاوة على ذلك، كان هناك محاولة لتقديم أجابات على الأسئلة التالية:هل كان بالإمكان مرحلة أهداف إسرائيل من الحرب كما حُددت بطريقة أخرى؟ كيف كان يمكن لفهم إسرائيل لرؤى نصر الله أن يؤثر على القرارات التي إتخذت في إسرائيل؟

يتصل الفصل الثاني بالمرحلة الثانية للحرب، التي دامت حوالي الأسبوع والنصف، بدءاً من الجمعة 21 تموز حتى الأربعاء 2 آب. خلال هذه الفترة، قام نصر الله بثلاث عروض، يوم الجمعة 21 تموز، الأربعاء 26 تموز، والسبت 29 تموز (حوار مصور مع مراسل شبكة تلفزيون الجزيرة بالإضافة الى خطابين آخرين). وقد تم تحليل االخطاب في أداء نصر الله في هذا الفصل أيضاً. إضافة لذلك، كان هناك محاولة لدرس التطورات التي حصلت في مفاهيم نصر الله بعد أسبوعين من القتال. علاوة على ذلك، كان هناك محاولة لتقييم ما إذا كان بإمكان هذه المفاهيم التأثير على عملية صنع االقرار الإسرائيلي وكيفية ذلك بما يتعلق، بشكل رئيس، بإنجازات إسرائيل في تلك المرحلة من الحرب والتوقعات المتعلقة بالمستقبل القريب للحرب.

أما العامل المشترك بين الفصول الأولى الأساسية فهو التحليل الخطابي لظهور نصر الله ومحاولة الرد على التساؤلات المرفوعة حول الأسلوب الذي تعاطت فيه الحكومة الإسرائيلية وحشود جيش الدفاع وفهمت جيداً مفهوم السياسة الداخلية اللبنانية، السياسة العربية المتبادلة والسياسة الدولية للحرب في لبنان.

في الفصل الثالث، هناك محاولة لتوضيح مفهوم حزب الله للتحرك العسكري، كما يمكن أن يُستنتج من تحليل الخطاب في ظهور نصر الله على إمتداد كل مراحل الحرب.
بعد ذلك، كان هناك محاولة للإشارة الى التطور والتغير الحاصل في ظرف نصر الله خلال المرحلة الثالثة والأخيرة من الحرب، كما يمكن أن يُستنتج من تحليل خطاباته الثلاث (في 5، 9، و 12 آب)، علاوة على ذلك، يشدد الفصل على فهم نصر الله لكل مرحلة من مراحل التفاوض حول قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1701، مقارنة بالتطور المتزامن في السياسة الخارجية الإسرائيلية. وينتهي الفصل بمحاولة لتقديم مفهوم نصر الله لتطورات المستقبل في " اليوم الذي تلا" بضوء تحليل الخطاب الملحوظ في خطابه الأخير في 14 آب.

الإستنتاجات الرئيسة

إن المصطلح الأبرز المستعمل غالباً من قبل نصرالله في كل خطاياته خلال حرب لبنان الثانية هو " الوقوف بثبات". وقد قدم نصر الله معانٍ مختلفة للمصطلح وفقاً للظروف، السياق، والتوقيت، في الوقت الذي نوَّع فيه إستخدام الفعل " للوقوف" – "سوف نقف بثبات"، " نحن نقف بثبات"، إلخ.

إكان القصد من كل إستخدامات الخطاب، رسائله، تفسيراته، وجدالاته المتحرى عنها في ظهور نصر الله الإعلامي دعم وتعزيز مفهوم " الوقوف بثبات". إذ حاول نصرالله في كل خطاب له دمج هذا المفهوم بثلاث قضايا إضافية كان يعتبرها ذات معنى واسع لا محدود بالقدر التي تعتبر ذات تعقيدات هامة جداً. أما المواضيع الثلاث فهي :

- " الوقوف بثبات" في سياق الوحدة والتكاتف اللبناني.
- " الوقوف بثبات" في سياق منظمة حزب الله، مقاتليه، والمجتمع الشيعي في لبنان.
- " الوقوف بثبات" في سياق المواجهة ضد إسرائيل في الوقت الذي يتم التشديد فيه على جانب الردع.

كانت القضايا المذكورة آنفاً، بطريقة ما، " الدعامات" التي كان حزب الله معتمداً عليها. فمن وجهة نصر الله، كانت القدرة على الحفاظ على أعمدة " الوقوف بثبات"، من دون تصدع، المفتاح لإحراز النصر في الحرب. فلكل " عامود" كهذا، قام نصر الله بحبك سلسلة نقاشات ورسائل ثابتة ومنظمة جيداً، والتي عُدِّلت وفقاً لتقدم الحرب وحاجات المنظمة.

فمبادئ القضية الأولى، " دعامة" الوحدة والتكاتف الوطني، تضمنت 4 " بذلات" خطابية كان القصد منها أساساً خدمة مفهوم " الوقوف بثبات":

"البذلة" الأولى كانت مفصلة في محاولة لتبرير عملية خطف الجنديين الإسرائيليين. فنصر الله لم يحتسب لرد قاس كهذا من الجانب الإسرائيلي. لذا فهو كان مجبراً على إستثمار جهد إضافي في محاولاته لإقناع الشعب اللبناني وكل من المعارضة الداخلية والخارجية بشرعية الإختطاف. إذ قدم خطاب نصر الله زعماً يقول بأن الإختطاف كان شرعياً وفقاً لتوجيهات بيان الحكومة اللبنانية الإبتدائي. كما كانت عملية الخطف مبررة أيضاً أخلاقياً مذكراً بعائلات المعتقلين، بالإضافة الى إعتبارها البديل الوحيد الباقي بعدما وصلت المفاوضات مع إسرائيل لتحرير الأسرى من السجون الإسرائيلية الى طريق مسدود.

" البذلة" الخطابية الثانية كانت مفصلة وفي الذهن خلفية الحرب وأسبابها الموجبة. فنصر الله تحرك كالبندول بين وجهتي نظر كان يحملهما. فوجهة النظرالأولى كانت تقول بأن سبب الحرب كان تفاعل إسرائيل تجاه خطف الجنديين، معززاً

بالرغبة بالإنتقام لذل الإنسحاب من لبنان في أيار 2000 (إدعى نصر الله ذلك حتى ظهوره في 26 تموز). أما وجة نظره الثانية فكانت زعمه بأن الحرب كانت مؤامرة، مخطط لها جيداً بقصد " إبادة" منظمة حزب الله. فالمؤامرة كانت بقيادة الولايات المتحدة، رئيسة مجموعة " الشرق الأوسط الجديد" (حيث لا مجال " للمقاومة" في العراق، لبنان وفلسطين.) أما إسرائيل فكانت تلعب دور الجلاد. فالمؤامرة كانت مدرجة زمنياً في أيلول أو تشرين الأول، وأحبطت عملية الإختطاف التحضيرات . هذا الأمر أجبر إسرائيل على إعادة جدولة الحرب وبذلك، أنقذ حزب الله من كارثة مرعبة.

أما " البذلة" الخطابية الثالثة فتضمنت شبكة نقاشاته ورسائله الهادفة الى خلق شعور بالنضال الوطني. إذ سعى نصر الله الى توحيد الأحزاب، المجتمعات، والطوائف الدينية في لبنان، داعماً المفهوم القائل بأن حزب الله يخدم أهداف الدولة اللبنانية، فحربه هي حربها، وإسرائيل في هذا السيناريوهي عدوة الكل تحاول الحاق الضرر بوطنية، ووحدة وسيادة وإستقلال الدولة. هذه " البذلة" كانت التحدي الأكثر تعقيداً وتشابكاً الذي تغلب عليه نصر الله خلال الحرب، من يوم الإختطاف حتى وقتنا الحاضر. علاوة على ذلك، وعطفاً على الحقيقة بأن نصر الله كان حازماً في المحافظة على ظهور هادئ وسليم التفكير، فهو قام بإستخدام واسع(نسبياً) لخطاب تخويفي إزاء أعدائه " المحليين" مثل: لقد إقترب "وقت تصفية الحساب". وفي إستعادة للماضي، بعد عام ونصف من الحرب، كان حزب الله منجرّاً بالفعل الى نزاع عنف لبناني داخلي.

وتم إستخدام "بذلة" الخطاب الرابعة من قبل نصر الله من خلال تعامله مع البلدان العربية. فالتحدي الذي شكله النزاع الوطني جعل نصر الله يبدو كطفل يحاول منع الطوفان بإقحام إصبعه في السد. بالواقع، وفي مقابل العالمين العربي والإسلامي (بإستثناء سوريا وإيران بشكل طبيعي)، وتحديداً فيما يعود لإئتلاف العرب المعتدلين، لم يكن هناك من سد على الإطلاق. إذ عبَّر نصر الله عن خيبته العميقة من إدارتهم، مرة بعد الأخرى، وغالباً ما إستخدم تعابير قاسية ضد كل من القادة والأنظمة وصولاً الى إتهامهم بتوفير الدعم لإسرائيل في نزاعها ضد حزب الله.

إما بالنسبة الى الموضوع الثاني، " دعامة" أفراد مقاتلي منظمة حزب الله والسكان الشيعة ضد الهجوم الإسرائيلي، فصَّل نصر الله 3 " بذلات" خطابية لتقوية أسس الدعامة: تستند " البذلة" الخطابية الأولى على الفكرة الدينية الإيمانية المتجذرة والمهيمنة. فنصر الله، وكونه زعيم توجه ديني حاول تعزيز نفوس رجاله بإستخدام أفكار دينية مهيمنة مثل جذور الجماعة الشيعية المغروسة عميقاً في الإسلام، الإيمان بأن الله وجبروته سيحدثان النصر، وشرف المؤمن الطامح للموت في سبيل الله وتحقيق الخلاص.

" البذلة" الثانية تستند الى الموروث العسكري الحربي لمنظمة حزب الله. إذ حاول نصر الله زرع الأمل في مقاتلي حزب الله بذكره إنجازاتهم العظيمة الماضية، بمصطلحات من نوع " ما حدث سيحدث مرة أخرى". ولتحقيق هذا الأمر، غالباً ما بالغ نصر الله بإنجازات المنظمة في حملته ضد إسرائيل (عملية " دين فيهيشبون" في تموز 1993، " عناقيد الغضب" في نيسان 1996، وإنسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي من لبنان في أيار 2000).

أما " البذلة" الخطابية الثالثة فكانت مبنية على محاولة نصر الله تخويف العدو وإرهابه. ففي كل خطاب له كان نصر الله يبالغ في ضعف إسرائيل والإشارة الى نقاط ضعف الجيش الإسرائيلي، في الوقت الذي يستخدم فيه أوصاف ملونة ورائعة.

بالنسبة للموضوع الثالث، " دعامة" المواجهة الإسرائيلية والردع، عمد نصر الله الى تفصيل 4 " بذلات"، موجهة الى الإخفاقات التي إختبرتها إسرائيل في الماضي عندما حاربت منظمة حزب الله. في إطار العمل هذا، قام نصر، وبإستمرار، بإطلاق مزاعم تتعلق بإفتقار العمل العسكري الإسرائيلي للهدف، بما أنه لم يحرز أهدافه. وكان هناك جدالان أكد عليهما نصر الله بقوة: عدم إعادة الجنديين الإسرائيليين إلا بإتفاق تبادل فقط وعبر وسيط فريق ثالث، وإستمرارية بقاء حزب الله مكنظمة مسلحة لوقت طويل بعد إنتهاء الحرب.

أكدت " البذلة" الثانية على القدرة العسكرية الجديدة لمنظمة حزب الله وقوة تحملها. إذ ذكر نصر الله بأن منظمته لم تعد كما كانت عليه في السابق، قائلاً بأنها أصبحت أقوى (بشكل رئيس، منذ إنسحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان عام 2000) وقال بان المنظمة تملك " مفاجآت" عديدة (عل سبيل المثال، نموذج صاروخ أرض – بحر C-802 الذي ضرب الآلية البحرية الإسرائيلية). إضافة لذلك، غالباً ما أشار نصر الله الى القدرات الغعسكرية البرية ، التي على جيش الدفاع الإسرائيلي مواجهتها إذا ما إختار غزو لبنان (الخبرة التي أحرزها مقاتلو المنظمة في الحرب البرية والوسائل القتالية، الصواريخ المضادة للدبابات بشكل رئيس). ونتيجة لذلك، بحسب ما زعم نصر الله، فإن الجيش الإسرائيلي سيتكبد خسائر عديدة في صفوفه، وبأن هدف إسرائيل بوقف إطلاق الصواريخ بإتجاه أراضيها سيظل أمراً لا يمكن إحرازه بسبب قدرة المنظمة على إطلاق الصواريخ من داخل عمق الأراضي اللبنانية (صواريخ طويلة المدى).

وهدفت " البذلة" الثالثة مباشرة الى ما كان يعتبر نقطة ضعف إسرائيل (بحسب مفهوم نصر الله)،ما يعني : الضرر اللاحق بالإقتصاد الإسرائيلي والضريبة المفروضة على الحياة البشرية على خط الجبهة الأمامية والجبهة الإسرائيلية. فنصرالله، الذي كان قد وصف سابقاً المجتمع الإسرائيلي بـ " بيت العنكبوت" (في خطابه بعد إنسحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان في أيار 2000) إستمر بزعمه بعجز إسرائيل على معالجة وضع الأزمة. ففي خطابه، بعد إسبوعين من بدء الحرب، قال نصر الله – " ما يهم الإسرائيليون هو الدم والمال".

أما " البذلة" الرابعة التي فصلها نصرالله فكانت محاولته المستمرة (منذ ظهوره الأول مساء 12 تموز حتى نهاية الحرب) لزعزعة إيمان الشعب الإسرائيلي بقيادته. إذ هاجم نصرالله في مناسبات عدة القيادتين السياسية والعسكرية في إسرائيل، متهماً إياهم بالإفتقار للخبرة في الساحة اللبنانية بالإضافة الى تحديدهم أهدافاً متجاسرة ومتعالية. وبحسب تفكيره، فإنه كلما طالت الحرب من دون تحقق أهداف إسرائيل، كلما تدهور دعم الشعب الإسرائيلي لقيادته. وبالنتيجة، ستكون القيادة الإسرائيلية مضغوطة لوقف القتال وإنهاء الحرب.

كانت " البذلات" الخطابية مصممة لتعزيز ودعم أسس " دعامات" " الوقوف بثبات" في الحرب. هذا الموقف كان مدعوماً بالدفاع عن " الوطن" لبنان، إزاء الهجوم الإسرائيلي من الجو والبر، وكذلك من الصراع بين الطوائف والفئات في الساحة الداخلية اللبنانية. فالمكونات الهجومية لم تكن سوى خطب نصر الله وإطلاق الصواريخ تجاه إسرائيل. فعندما سُئل نصر الله (من قبل مراسل شبكة تلفزيون الجزيرة في 21 تموز) ما الذي يمكن تعريفه بالنصر من وجهة نظره، أجاب نصر الله:

" إذا ما نجحنا في حماية وطننا، فإننا سنفوز (...) فالنصر بمفهومنا هو إستمرار المقاومة بالصمود (...) وبأن يبقى لبنان موحداً(...) والوقوف بثبات ولن نوافق على مصطلح مذل قد يظهر في محاولة لحل القضية (...) طالما بقيت الصواريخ تُطلق من لبنان وتلحق الضرر بالصهاينة".

في تحليل ما بعد الحرب، نجح نصر الله بالدفاع عن لبنان. إذ كانت الصواريخ تُطلق من لبنان بإتجاه إسرائيل مدة 34 يوماً من الحرب، وظلت المقاومة ثابتة وتجاوز لبنان أزمة داخلية وخيمة العواقب (لا يزال هناك إمكانية تصعيد عالية) وظل موحداً. أما السؤال فيظل ما إذا كان نصر الله قد قبل بأي شرط مذل عند محاولته حل الصراع.

الإستنتاجات الموجزة:

طرحت المراحل الثلاثة للحرب التي تم تحليلها في هذا البحث (الجوانب السياسية والعسكرية مقابل خطاب نصر الله) عدداً من الإستنتاجات، التي قد تقدم جواباً على هذا السؤال، أي إذا ما كان نصر الله قد قبل بأي شروط مذلة.

إن تحليل المرحلة الأولى من الحرب (21 – 22 تموز) أشر الى أنه لو قام جيش الدفاع الإسرائيلي بتفعيل خطة " آيس بريكر" بالكامل (تجنيد قوات إحتياط وإرسال إنذار نهائي بتمديد الحرب إذا لم تتحقق مطالب إسرائيل)، وليس فقط

تفعيل المكوِّن الجوي، يوجد إحتمال عال بأن إسرائيل كانت لتحقق إنجازاً مشابهاً، من حيث المبدأ، لقرار مجلس الأمن الدولي رقم 1701. مع ذلك، فإن تحديد هدف مثل إسترجاع الجنديين الإسرائيليين فوراً وبكل الوسائل (المحدد أيضاً في بيان مجلس الوزراء الأمني المصغر من 11 آب) – كان أمراً لايمكن تحقيقه.

إن قرار حكومة إسرائيل (الذي عارضه الجيش)، بعدم مهاجمة البنية التحتية للبنان (على سبيل المثال، الكهرباء) أدى الى إحتكاك في أسس " دعامة" الوحدة والتكاتف اللبناني الوطني التي ناضل نصر الله للحفاظ عليها. إذ من المعقول ظاهرياً أن مهاجمة البنية التحتية كانت لتعمل كمحفز للوحدة الوطنية وتموضع حزب الله والمعارضة داخل " الوطن" على نفس الجانب من الخريطة السياسية.

إن شعور نصر الله بالرضا الذاتي بما يتعلق بأمنه الشخصي عشية الحرب (ظهوره العلني في مؤتمر صحفي عُقد في 12 تموز) عرَّضه لمحاولة هجوم. من الصعب التقدير كيف كانت الحرب لتتطور لو أن الإسرائيليين نجحوا بإستهداف نصر الله وقتله. في كل الأحوال، بالإمكان الإفتراض، بحذر، بأن ذلك كان ليولّد تأثيراً إيجابياً في جانب قدرات إسرائيل لتحقيق أهدافها خلال مسافة زمنية أقصر.

وقد أشر تحليل المرحلة الثانية من الحرب (21 تموز – 2 آب) الى أن إسرائيل فوتت على نفسها فرصة إحراز إنجاز على نفس المستوى الذي قدمه مجلس الأمن الدولي (الذي حصل بعد أسبوعين من بدء الحرب أصلاً)، ما يعني، لو أنها قبلت "خطة النقاط السبعة" المطروحة من قبل الحكومة اللبنانية. فهذه الخطة لم تكن فقط فكرة موحدة من قبل الداعمين لرئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة والتي رحبت بها البلدان العربية بحرارة (بشكل رئيس،" الكتلة المعتدلة" – العربية السعودية، مصر والأردن)، وإنما صادق عليها حزب الله أيضاً (خلال جلسة للحكومة اللبنانية في 27 تموز) من دون تدخل الضغط الدولي. فلا أحد كان ليصدق في بداية الحرب بأن حزب الله يمكن أن يكون مستعداً لقبول هذه الخطة التي كانت النقيض المباشر لسياسات ورؤى المنظمة على إمتداد الـ 16 عاماً الأخيرة. وقد نالت العبارة التي تذكر نقل مزارع شبعا الى القوات الدولية إعتراضاً فورياً وحاسماً من إسرائيل. فبالرغم من أن قضية المزارع كانت تعتبر "ثمناً" مرتفعاً في المصطلحات الإسرائيلية، فإن هذه الغرامة، من جهة أخرى، كانت لتسحب "السجادة من تحت أقدام حزب الله" وكان سيخلق ذلك رافعة لفرض تنفيذ فصول الخطة الأخرى (التي ترغب بها إسرائيل).

أما تحليل المرحلة الثالة من الحرب (2 – 14 آب) فقد أشر الى الى أنه قبل المصادقة على قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1701 (12 آب)، كان من الممكن فهم أن إنجازه الرئيس (إن لم يكن المطلق) سيكون تنفيذ الفقرة التي تشير الى نشر الجيش اللبناني وقوات الأمم المتحدة في جنوب لبنان. وقد أظهر نصر الله موافقته على الفكرة عندما طرحت المسألة كإقتراح من قبل الحكومة اللبنانية (7 آب) وأعلن ذلك في خطابه في 9 آب. مع ذلك، ومنذ المراحل الأولى للحرب، وخلال هذه المرحلة حتماً، كان بالإمكان رؤية إفتقار إسرائيل للإستعداد لدفع " ثمن" (كدفع مزارع شبعا كغرامة)، أو الإفتقار لآلية فرض فعالة لتنفيذ القرار 1701، ما جعل أرجحية تنفيذه الناجح متدنية جداً.

العودة الى السؤال: هل وافق نصر الله على مصطلح مذل بحسب تعريفه؟

تشير تطورات مابعد الحرب الى أن المبادئ، التي كان نصرالله قد إعترض عليها بشكل حاسم في الماضي، كتطبيق السيادة الوطنية اللبنانية على كامل البلد، بما في ذلك نشر القوات المسلحة على الحدود اللبنانية – الإسرائيلية، تحولت الى واقع لبناني حالي. فحزب الله لم يعد " المدافع عن لبنان" كما لم يعد " المدافع عن الجنوب"، كما كان ينسب لنفسه قبل الحرب. فثقد تحولت منظمة حزب الله من كونها مدافع فعلي الى مدافع محتمل.

في الوقت الذي نكتب نفس هذه الجمل (أيار 2009)، لم تعد منظمة حزب الله، حتى الآن، الى القيام بهجمات إرهابية على الحدود الشمالية لإسرائيل. وقد إنتُخِب رئيس جديد ويوجد حكومة فاعلة تقوم بوظائفها. كما أن لبنان على أبواب حملة إنتخابية أيضاً، إذاً، فإذا ما كان عدم الإستقرار الداخلي قد إستخدِم سبباً وحافزاً لنقص النشاط الإرهابي، فإن الأمر لم يعد

كذلك. فحزب الله ما زال عليه أيضاً الإنتقام لمقتل عماد مغنية، القائد العسكري للمنظمة. أما اليوم، وبعد إتمام تبادل الأسرى المخطوفين (16 تموز 2008)، فإننا نواجه فترة إمتحان أخرى بما يتعلق بإحتمال عودة حزب الله الى تنفيذ هجمات إرهابية.

كيف علينا تعريف حزب الله، بعد 3 سنوات تقريباً من حرب لبنان الثانية؟ هل لا يزال منظمة (مصطلح يشير الى الوجه العدواني المسلح) أم أن حزب الله هو الآن حركة فقط (مصطلح يشهد على الوجه السياسي و الإجتماعي)؟
من المرجح أن يكون التعريف الأدق هو التالي: إن حركة حزب الله هي منظمة محتملة، والتي قد تفعِّل الوسائل العسكرية التي في حوزتها بحسب إعتباراتها في وضع معين. وكلما يمر زمن من دون أن يتم فيه إستخدام قدرات حزب الله العسكرية، فإن الحزب منسيتراجه عن تعريفه كمنظمة ويرسخ نفسه أكثر كحركة.

إن أي تقدم تم بما يتعلق بتنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1701(بما في ذلك القرار 1559، مسألة نزع السلاح) سيؤثر لجهة التقليل من صلة مصطلح "المنظمة" ويؤدي الى زيادة في صلة مصطلح " الحركة".

في الواقع هذا هو الإنجاز الأهم لحرب لبنان الثانية.